بين شيخ وشاب وفتاة

للأســـتاذ ثروت أباظه

أما الشاب فأديب قانع من الأدب بتذوقه وتلذذه . قرأ أكثر ما كتبه المتقدمون ، فلما كتب المحدثون عزف عن القراءة . ولم يجد ما يبرر به هذا العزوف إلا أن يقول لم يعد فى البلد أدب . أصبح همّ الكاتب أن يكتب عن الحب والمرأة ، كأن الدنيا قد خلت من كل شىء إلا الحب والمرأة . . فلم يعد فيها مجال للمثل العليا ولا نصيب للموعظة الحسنة . . أين كتاب الأدب القديم وشعراؤه ؟ أين فلسفة المعرى ، وحكمة أبى تمام ، وأمثال المتنبى ؟ أين روائع ابن العميد ، وبدائع عبد الحميد ، ورقائق ابن الزيات ؟ رحم الله الأدب !

وهكذا كان يعزى الشيخ نفسه عن اجتوائها حديث الشباب ، حديث الحب والمرأة .

وأما الشاب فهو ابنه ، أراده على أن يكون أديباً فكان ، ولكنه كان على غير طراز أبيه . . كان الأب يؤثر الأدب القديم ويحب أن ينهل ابنه من موارده ، فأخذ يحفظه الأشعار المختارة لمباقرة الجاهلية والإسلام ؛ ولكن ابن القرن العشرين لم يكن ليحتمل أن يقرأ كل كلمة مرتين : مرة فى الكتاب ومرة فى المعجم . فكره الأدب القديم بعد أن تزود منه ما يكفيه أساساً وتراساً . ولما رأى الأب أن ابنه لا بد تارك الأدب لو بقى مقصوراً على قديمه سمح له أن يقرأ ما يشاء ، فقرأ أكثر ما كتب فى الأدب الحديث .

وأما الفتاة فهى زوجة الشاب ، وهى أيضاً أديبة بفطرتها ، لم توجه نفسها فى قراءتها توجيهاً معيناً ، ولكنها مع ذلك ذات حس فنى دقيق وذوق أدبى مرهف .

أسرة تربطها أواصر القرابة والنسب ، ثم توثق هذه الرابطة بينها رابطة الأدب . أحبت هذه العائلة وأصبح من بواعث الغبطة فى نفسى أن أزورها كلما تهيأت لى الفرصة . . وكان أن ذهبت ، فوجدت (الرسالة) بين أيديهم ، وكانت بها الحلقة الثالثة من (قصة فتاة) . . وهى التى يصف فيها الأستاذ الزيات الفتاة حبيسة فى العزبة ، تلح عليه أن يجاوبها حباً بحب ، لا حباً بنصيحة . وبصفها وقد ملت الانتظار . . فيأتى بقصتها مع الجاموسة ، ثم بروايتها مع ابن البستانى .

رأيت الشيخ يتوثب على كرسيه ، وقد رده الحنق شاباً ؛ ورأيت الفتاة مهتاجة فكأنما هى صاحبة القصة ، وكأن « س » اسمها الحقيق ؛ ورأيت الشاب يكتم فرحة تفيض على محياه ، فبدا فى وقاره وكأنه الشيخ . . . وعجبت أن يغضب الشيخ والفتاة لسبب واحد ؛ إذ العادة أنه إذا غضب الشيخ رضيت الفتاة ، وإن رضى غضبت . ولكن السبب ، وإن اتحد فى جوهره وهو المقال ، تشعب فى عرضه ، قال الشيخ :

— لو لم يكن الزيات هو صاحب الرسالة لوثقت أن هذا المقال مزور عليه . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! لقد كان أسلوبه وأدبه عزائى عما أصابنى فى الأدب الحديث . إنه وحده الذى كان يظهر جمال الأدب الجديد حين يكسوه بالأدب القديم ، أيكتب هو أيضاً عن الحب ؟ وأى حب ! وعن الشهوة ؟ وأى شهوة ! لا ، لا يصلح قلم الزيات لهذا الأمر . . ثم التفت إلىّ وقال : قل له يرجع إلى ما كان عليه فإنه أولى به وأحرى .

قالت الفتاة : لا بأس يا عماه أن يكتب فى الحب ، ولكن أهكذا يكون حب الفتاة ؟ أهى لا تحب إلا بهذه الصورة التى رسمها لها ؟ إن الكاتب حين يكتب عن جنس بذاته يختار من بينه شخصية تتفق عناصرها وأغلب أفراد هذا الجنس

أفتاته « س » هى نموذج الفتاة العصرية ؟ أكل فتاة عصرية ترى فى الخطبة تجريباً وتدريباً ومتعة ، وأن هذا التجريب يكون ...

لم يدعها الشاب تتم الحديث بل اندفع قائلاً :

— حسبك . . حسبك . . فوالله ما غضبت لجنسك المجروح أن يتهم ، ولكن غضبت لأنه يكشف الستار عن خبيئته ، ويبدد ذلك الوهم الذى كان يرين على دخيلته . تضحكن على الرجال فتدعين غموضه وإيغاله فى الاستخفاء . . وظللنا نحن المساكين نقع فى حبائلكن ونرتمى فى شباككن ، محاولين الوصول إلى ما تخفيه نفوسكن حتى نتمكن بعد ذلك من إقامة الحياة فى سننها